ركاب عربة المترو
« و قصص أخرى »

م / مصطفى الطبجي

ركاب عربة المترو ..!
المؤلف : م / مصطفي الطبجي
الطبعة الأولي ٢٠١٢

دار الحلم للنشر والتوزيع
القاهرة ،٤ شارع الأشراف - تقسيم العسال - شارع
مؤسسة الزكاة - المرج

موبايل :
01141824562
:E-Mail
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام :
د/اسلام فتحى

تصميم الغلاف : أسامة علام
رسوم الغلاف : محمد الطبجي

إخراج داخلي :
إبــداع للـدعـاية والإعـلان

رقم الايداع : ٢٠١٢/٢٠٩٤٤
الترقيم الدولي : ٨-١١-٦٤١٢-٩٧٧-٩٧٨

شـكـر..

أمي، زوجتي، إخوتي، أهلي، أصدقائي، زملائي في العمل، كل من وقف بجانبي، وكل المقربين لي...

كثير ما تعجز كلمات الشكر عن إفاء كل ذي حقٍ حقه، فما قدمتوه يستحق أكثر من ذلك، لذا أتمنى أن يكون نجاح هذا العمل هو أبلغ تقدير لكم.

شكرًا على إلهام كان سخيـًا

شكرًا على مساندة كانت قوية

شكرًا على إيمان كان صادقـًا

إهداء هذا العمل للجميع لن يكتمل إلا بتحقيق المقولة

«كن إياد الصفات لا تقبل على الهيات بالهمس

تميم الأخلاق وكأنك ولدت بالأمس »

مقدمـة

عند قراءتك لتلك المجموعة إعلم أنها ليست مجرد تسلية، بل هي تجسيد لأحداث واقعية، أو مواقف حقيقية ربما مررت بها أنت نفسك في يوم من الأيام... ولم تدرك وقتها أنك في موقف لا تحسد عليه.

عند قراءتك لتلك المجموعة إعلم أنها ليست مجرد تسلية، بل يجب عليك تحريك خيالك، سارحًا به بعيدًا لمقابلة بطل كل قصة، متعرفًا على المكان الذي تدور فيه الأحداث... علك تدرك الحقيقة وقتها.

عند قراءتك لتلك المجموعة إعلم أنها ليست مجرد تسلية، لأنك ستتعرف على أصدقاء جدد، تعيش معهم وكأنك تعرفهم منذ الطفولة، ستتمنى لو كان بمقدورك تقديم المساعدة... قد تستطيع فعل ذلك يوم ما.

عند قراءتك لتلك المجموعة اعلم أنها ليست مجرد تسلية، بل ستحبس أنفاسك تمامًا حتى تصل للنهاية... قد تكون شيقة أو مملة، لا يهم، المهم أنها واقعية تحتوي على درجة كبيرة من الخيال.

كنت أعرفه صغيراً

يناير ٢٠١١

.....

أكتوبر ٢٠١٠

مر من أمامي أثناء جلوسي مع أحد الأصدقاء في أحد الحدائق العامة نتباحث أمور السياسة، بالرغم من أني أكبره بعدة أعوام إلا أن مظهره يوحي بأنه تخطاني بعقود كثيرة، ظهره المحني، قدماه اللتان بالكاد تتحملانه، العصى التي يتكأ عليها، يداه المرتعشتان، كلها علامات توحي بهذا، ملامح وجهه توحي بامتلاكه قدرًا كبيرًا من الوسامة فيما مضى، وسامة لم تستطع تلك التجاعيد والإصابات والندبات التي تملأ وجهه اخفاءها كليًا، وإن كانت قد طمست بريقها، لاحظت في مشيته البطيئة الرتيبة إصابة ما في قدمه اليسرى، على ما تبدو إصابة بالغة، قدمه بالكاد تتلامس مع الأرض، يرتدي معطفًا بالي غير محدد اللون من كثرة ما به من رقع وبقع، هممت القيام من مكاني والذهاب إليه، لكني تراجعت، فلا يوجد في جعبتي ما يمكن قوله.

إبريل ٢٠٠٨

واقفًا على الرصيف، محني الظهر، لا ينظر للأعلى كأنه مكسور العين، مسلوب الكرامة، معطفه البالي يوضح حالته الإقتصادية الهشة، مشيراً لتخطيه خط الفقر بمراحل عدة، فأصبح على الهامش، الشرود كان واضحًا عليه، لذا لم يلمح تلك السيارة المسرعة القادمة في إتجاهه أثناء عبوره الطريق ببطء، كأنه لم يعد يبالي، في المستشفى أخبروه بشدة اصابته، بسبب خطورة الحالة الصحية، وانعدام الحالة المادية، كان العلاج ليس أكثر ،كمية لا بأس بها من الاهمال، لذا لم تعد قدمه اليسرى كما كانت قبل الحادث، أصبحت أقصر

من القدم اليمنى بقليل، ما باليد حيلة، كل ما استطاع الحصول عليه خلاف العلاج الخاطئ هو عصاة يتوكأ عليها، عسى أن تكون بديلاً عن قدمه التي ضاعت.

سبتمبر ٢٠٠١

يركض بسرعة كبيـرة كأنه عداء متمرس أو مخترق ضواحي في أحـد الدورات الأولمبية التي دومًا ما نعود منها بالتمثيل المشرف، إذا نظرت إليه وهو يفادي الناس يمينًا ويسارًا ستعلم أنها ليست المرة الأولى التي يركض فيها بهذه الطريقة، وفي هذا المكان، كأنه يعرف مسبقًا أماكن تواجد الناس من حوله، متوقعًا لتحركاتهم، قبل الحكم عليه وعلى سبب ركضه يجب ملاحظة الصورة كاملة، إنه لا يركض وحيدًا، هناك ثلاثة أشخاص يركضون معه، أو الأصح يركضون خلفه، من النظرة الأولى ستعرف أنهم من فاسدي الأخلاق، محنكي الإجرام، متحجّري القلوب، أسلحتهم البيضاء تلمع في شمس النهار، الجميع يتحاشاهم حتى رجال الأمن، في النهاية وبعد كل شئ فإن من يركضون ورائه ليس سوى صعلوكًا آخر لن يضر البشرية في شئ إن أصبح هباءً منثورا، أمسكوا به بعد فترة ركض طويلة، لهاثهم يتقاطع مع كلماتهم الغاضبة المهددة المنددة، تخرج نصف الكلمات مبهمة غير واضحة المعالم تحت رذاذ لعابهم، إلا أن نظرات أعينهم كانت كافية لتوضيح كافة المعاني، الحق أنه كان شجاعًا، لكن الكثرة دائمًا ما تتفوق على الشجاعة، تكالبوا عليه، أصابوه بعدة طعنات في بطنه، وجرح في جبينه، المؤلم في الإصابات أنها لم تكن بنية القتل، لم تكن هذه نيتهم منذ البداية، هم فقط يريدون زيادة جراحه، وكأنها عملية ممتعة بالنسبة لهم.

أكتوبر ١٩٩٢

يجلس في الشرفة الضيقة بشقته الصغيرة في تلك الحارة مجهولة الإسم، تلك الشقة التي استطاع بالكاد توفير ثمنها بشق الأنفس، كل ما ادخره في حياته وضعه في تلك الشقة آملاً أنها ستكون خير سند له في مواجهة تلك الحياة التي ترفض اعطاءه وجهًا مبتسمًا، يرشف من كوب الشاي رشفة ثم يضعه على سور الشرفة، فوجئ بوقوع الكوب الوحيد الذي يمتلكه على الأرض لينكسر، قبل أن يستعجب أو يستغرب سمع أصوات الجيران من حوله وهم يصرخون، «زلزاااال»، نزل إلى ذلك الزقاق الضيق يركض مع الراكضين، لا يعلم إلى أين يذهب أو من أين أتى، الكل يركض في كل اتجاه، ركض، تصادم، سقوط، آهات، هنا تذكر تركه باب الشقة مفتوحًا، رجع إليها خوفًا على ما فيها، وكأن لصوص الشقق هم المسببين للزلزال، أو أن أحدهم سيفكر في سرقة شقة والبيت يتساقط عليه كأوراق الشجر في فصل الخريف، رجع ركضًا، الباب بالفعل كان مفتوحًا، لم يغلقه، بل دخل الشقة، نظر إليها نظرة الوداع، هو مدرك لما سيحدث لهذا البيت القديم الذي لا يتحمل الصياح بصوت عالي، ترك انجاز حياته وانصرف، لكن البيت القديم تهدم فوقه وكأنه يأبى الفراق، ارتجاج في المخ ورعشة مستمرة في أطرافه هو محصلة ما جناه اليوم.

أكتوبر ١٩٨١

شاب في عمر الزهور، على مشارف الثلاثين من عمره، يحلم أحلامًا وردية لحياة يتمنى أن تكون سعيدة، عائد من عمله الذي يبدع فيه مع أنه لم يكن يتمناه بأي حال من الأحوال، لكنه القدر، ملابسه المهندمة وحذائه اللامع يوحيان بأنه من عائلة مقتدرة، يحب السير لأنها رياضة مفيدة، لا يهم مروره كل يوم على نفس الأماكن ونفس الأشخاص، يعتقد أنه بذلك سوف تتكون

لديه صداقة مع الأماكن قبل الأشخاص، فذلك عم حسنين البقال، وهذا أستاذ صابر الترزي، وذلك صالون الحلاقة الذي دومًا ما يقص شعره فيه، أما هذه فهي السيدة أم فاطمة الجالسة أمام الكشك الخاص بها، والذي تصرف منه على أولادها الخمسة بعد هجرة زوجها لها واختفاءه فجأة، لقد ساعدها في ترخيص هذا الكشك، وكذلك في شراء البضاعة له، لكنه لا يحب التحدث عن نفسه كثيرًا، سمع صوت إستغاثة، التفت ليجد سيدة تصرخ بأعلى صوت، وشخص ما يمسك بحقيبة يدها يجري مبتعدًا عنها، يجري مبتعدًا نحوه، حاول إمساكه بكل قوة، لكن ذلك اللص عاجله بضربة كسرت فكه السفلي، حاول الإمساك به مجددًا، نجح هذه المرة، أمسك به من ملابسه، عاجله بضربة قوية في عنقه، سقط اللص ميتًا على الفور، حكم على ذلك الشاب الشجاع بالحبس لمدة عام، ليطرد من عمله وتضيع أحلامه، فالقتيل لم يكن لصًا، بل كان زوج السيدة.

يونيو ١٩٦٧

على أعتاب مرحلة تسمى بالمراهقة، منبهرًا بكل ما تقع عليه عيناه، اليوم يحلم بأن يصبح طيارًا ماهرًا، بالأمس حلم أنه مهندس مشهور، غدًا سيكون موعده مع حلم آخر، امتد انبهاره إلى الأفلام الأمريكية وما تحتويه من حركات قتالية تسمى «أكشن»، تضمنت أحلامه هيئته وهو بطل عالمي في جميع الرياضات يومًا ما، وإن كان هذا الحلم الوحيد الذي بدأ تنفيذه منذ الصغر، كان يقلد جميع الحركات التي يراها في الأفلام، في أول الأمر كان يقلدها في غرفته دون أن يراه أحد، ثم بدأ يقلدها أمام أبيه وأمه وهما ينظران إليه ضاحكان مبتسمان، ثم بدأ يقلدها أمام أصحابه وهم ينظرون إليه حاقدون مبهورون، ثم بدأ يطبقها على الجميع، بدأ يفتعل أي مشاجرة فقط لكي يطبق ما تعلمه وما رأه ظنًا منه أنه يسلك بهذه الطريقة أقصر

طرق البطولات، أو ربما الطريق الوحيد، الشكاوى زادت منه إلى أبيه، كان لابد من عقاب رادع، والحرق بالملعقة في كل مرة كان في رأي أبيه هو أنسب الحلول بعد منعه من مشاهدة الأفلام الأمريكية، أو الأفلام عامًا، حرق بالملعقة والأم تقف ساكنة موافقة، والطفل يصرخ ألمًا، والدخان يتصاعد.

يوليو ١٩٥٢

طفل بالكاد يسيرعلى قدميه، يحاول استكشاف العالم من حوله، والعالم هنا ليس سوى تلك الشقة التي يعيش بها مع أبويه، هي شقة محدودة لكن بالنسبة له هي عالم واسع غير متناهي، لا يترك درجًا إلا ويفتحه، لا يترك شيئًا إلا ويلمسه، لا يترك بابًا إلا ويعبره، حنان ومحبة والديه كانتا لا توصف، فهو البكر وسيكون الوحيد لا لشئ، ولكن لأن أمه استئصلت الرحم بعد الولادة، كأنما أراد أن يكون وحيدًا حتى وهو جنين في رحم أمه، يسير بخطى بطيئة ليصل إلى الموقد، يحاول التمسك به ليرى ما ذلك الشئ الذي تتصاعد منه الأبخرة، تلاحظه أمه، تنظر إليه باسمة، قبل اكتمال الابتسامة التي كانت إلى حد ما صفراء ينسكب عليه الماء المغلي ليحرق جزء من يده اليمنى وصدره وجزء من فروة رأسه.

مايو ١٩٤٨

عندما ولد كنت حاضرًا، تطلعت إليه، كان طفلًا جميلًا، عيناه متسعتان فيهما بريق وكأن الأسئلة والفضول تملأهما، حركاته البسيطة توحي بذكاء فطري يريد النمو سريعًا رغم أنف الجميع، ابتساماته التي كان يوزعها هنا وهناك تنتظر ردًا عن كل سؤال يسأله، إذا نظرت إلى أعين والديه ستجد الفرحة تملأها، لكنها وللعجب فرحة ينقصها شئ ما، قد يكون بسبب الارهاق

الواضح على الأم، الكل لاحظ ذلك، لكن لا أحد يعلق ولا أحد يتكلم، الكل بما فيهم أنا كنا نتمنى مستقبلاً مشرقًا ونجاحًا باهرًا لهذا الطفل، نجاح المفترض أنه سيكون نتيجة حتمية أو طبيعية لنجاح والده.

يوم عادي غريب جدًا

«ترررررررررررررررررررررررن» كان هذا الصوت التقليدي الرتيب للمنبه التقليدي على ذلك الكومودينو الدمياطي في تلك الغرفة البسيطة، معلنًا عن اشارة عقربيه للساعة الخامسة والنصف فجرًا، قام من فراشه ببطء متملكًا منه شعور غامض بالكسل والإرهاق وعدم الرغبة في الإستيقاظ، إحتار في سبب هذا الشعور الذي يراوده لأول مرة، فكر فيه لمدة أقل من الثانية، هو يعلم أن هذا الشعور ليس سببه عودته إلى منزله بعد منتصف الليل بعدما اضطرته الظروف وتعليمات مديره على السهر في العمل لإنهاء تقارير متأخرة، ولا سببه عدم استطاعته النوم جيدًا بعدما حوّل الشاب المقيم بالشقة المقابلة شقته إلى استوديو تحليل مباريات «البلاي ستيشن» المصيرية، أغلب الظن هذا الشعور سببه هو انعدام الحماس الكاف للعمل، لم يعد لديه حماس كافٍ للقيام بما تعود طوال عشرون عامًا القيام به، ربما لأنه بعد تخرجه من كلية العلوم بتقدير مرتفع اعتقد بأن مكانه الطبيعي سيكون في المعمل، مرتديًا المعطف الأبيض، يقف وسط الأبحاث والتجارب، لكنه وجد نفسه في الأرشيف، مرتديًا المعصم الأسمر، يقف وسط الملفات والأتربة، وكما يقول المثل الشعبي الذي أصبح حاليًا أسطورة مقدسة «اليد قصيرة والعين بصيرة»، وطلبات الزوجة والأولاد لا تفنى ولا تستحدث من العدم.

قام من مكانه مطأطأ الرأس مشعث الشعر يجر قدماه جرًا مما جعلهما تصدران صوتًا يشبه صوت فحيح الأفاعي عند إحتكاكهما بأرضية الغرفة الخشبية الخالية من السجاجيد، طرق باب الحمام بلطف يشوبه بعض الخشونة، لا يدري لماذا يطرقه فالجميع مازالوا نيامًا، وهو يعلم هذا، يبدو أنها العادة، لا يستطيع أن يبدأ يومه إلا بعد أخذ حمامًا باردًا، صيف شتاء لا يهم، المياة لا بد وأن تكون باردة، هو لا يتشائم أو يتفائل بهذا، لكنها العادة أيضًا طوال عشرون عامًا، فتح الصنبور، نظر إلى «الدُش» في انتظار هديل المياة، طال انتظاره، لم تهدل المياة التي دائمًا ما تذكره بمياة الأمطار التي كان

يركض أسفلها عندما كان في مرحلة الطفولة، كل ما حصل عليه كان صوت زمجرة أقرب للحشرجة صحبها ارتجاج في المواسير وكأنها تريد الانفجار، البوح بأسرارها، اظهار ما كانت تخفيه طوال عشرون عامًا قضتها في كنف هذا الرجل، نظر لها راجيًا مترجيًا متوسلًا أن تترك كل ما تعانيه وتشعر به الآن، استحلفها بكل ما هو عزيز، بكل ما هو غالي، بكل ما هو نفيس، أن تتنازل عن مشاعرها وأحلامها فقط من أجله، من أجل بضع قطرات من المياة التي لا بد وأن يبدأ بها يومه المشحون.

إرتفع صوت الزمجرة كإعلان صريح عن استمرار العصيان، إزداد الإرتجاج وكأنه دليل على مزيد من الغضب، ثم سكت كل شئ دفعة واحدة، بدون مقدمات هدوء تام، أصبح لا صوت يعلو فوق صوت المياة المنهمرة المعبرة عن رضوخ تام لطلباته التي لا تنتهي هي أيضًا، رضوخ تام يصاحبه سحابة من الكبرياء ولمحة من الكرامة والعزة بالنفس، فالمياة لم تكن كما تعودها دائمًا، بل كانت مليئة بأتربة جعلت لونها المعهود يتحول إلى لون بني داكن يمكن ملاحظته جيدًا على الرغم من ذلك الضوء الواهن الضعيف لذلك المصباح المعلق وحيدًا في سقف ذلك الحمام الضيق، لون داكن جعله يتخيل نفسه يأخذ حمامًا من الوحل.

خرج غاضبًا، بعدما لم يأخذ حمامه المعتاد، راوده شعور بأن اليوم لن يمر على خير ما يرام، «الفار بيلعب في عبـّه» و»عينه الشمال بترف»، سرعان ما نفـّض هذا الشعور عن كتفيه، هو لا يتشائم أو يتفائل بمثل هذه الأمور، وجهته كانت إلى فرن العيش البلدي الذي يبدأ عمله من بعد صلاة الفجر وينتهي في العاشرة صباحًا، تعود كل يوم الوقوف في هذا الطابور الطويل للحصول على خمسة أرغفة لكي يفطر بها بصحبة زملاءه في العمل، خيل له قصر الطابور عن المعتاد، لا يهم، في حد ذاته هذا أمر جيد، بدأ في اضاعة الوقت بالتحدث مع الواقف أمامه أو الواقف خلفه، الحديث دائمًا ما يكون حول أمور الحياة والمشاكل التي تستجد على الساحة، تتكون هنا علاقة

صداقة طابورية، علاقة تنتهي بمجرد خروج أحدهم من الطابور، لا يهم عن ماذا يتكلمون أو في ماذا يفكرون، لا تهم وجهات نظر كل منهم السياسية، لن يتذكر أحد ما كان يقوله أي منهم، كل ما في الأمر أنهم يريدون تهوين طول الوقفة بالإنشغال عنها بالحديث، بينما هو يتحدث طرأ على عقله سؤال هام، هل يخبزون مستخدمين نفس تلك المياة المحملة بالأتربة التي رأها في حمام منزله المتواضع؟ قبل ايجاد إجابة شافية هاجمه سؤال آخر، هل سيكون هناك فرق ما إذا كانت المياة المستخدمة نظيفة أم لا؟ أم أنه في كلا الحالتين سوف يشتري الخبز؟ كانت الإجابة واضحة كنور الشمس في كبد سماء صافية، الخبز يحتوي على أتربة على مسامير على ذيل فأر لا يهم، المهم ايجاد ما يكمل به وجبة الإفطار.

الطابور يتحرك ببطء شديد، وكأنهم في إحدى إشارات مرور وسط البلد، توقف الطابور فجأة ولمدة طويلة، أفاد أحد الظرفاء بعد طول توقف «أكيد الريّس معدّي»، ضحك الجميع ضحكة يخفون بها ما يتملكهم من هموم ألقتها الدنيا عليهم وعلقتها في أعناقهم، طال الإنتظار وبدأت عملية الململة، كان السؤال وكانت الإجابة المفحمة «لا يوجد دقيق»، يعلم الجميع أن صاحب الفرن يبيع الدقيق في السوق السوداء، ومع ذلك لم يبلغ عنه أحدهم لسبب بسيط، إذا قامت الحكومة بغلق الفرن وسحب الترخيص، من أين سيأتون برغيف الخبز؟؟ مازال «الفار بيلعب في عبّه» و«عينه الشمال بترف»، اليوم ظهرت مبشراته، لكنه لا يتشائم أو يتفائل بمثل هذه الأمور.

أكمل سيره متجهًا إلى محطة النقل العام، لديه يقين بملازمة الحظ له، ذلك أنه دومًا ما يستقل الأتوبيس من محطته الأولى، في الوقت الذي يكون فيه تقريبًا فارغ، لا يهبط منه إلا في محطته الأخيرة والنهائية، هذا يعني عدم تعرضه للوقوف أو المزاحمة أو السرقة من هؤلاء محترفي النشل، هو في وضع آمن، بحث بنظره عن رقم ٧٨ وكان هذا رقم الأتوبيس الذي يستقله كل يوم، طال بحثه و لم يعثر على شئ، أخرج منديلاً مسح به عدسات نظارته الطبية

وبحث من جديد.

«هو الأتوبيس إتسرق ولا إيه؟؟».. كان هذا ما يدور بذهنه وقتها، لكن الكمسري والذي تكونت بينهم علاقة صداقة أتوبيسية أخبره إن اليوم عطلة رسمية وأغلب الخطوط تم تحويلها إلى المنتزهات العامة كخدمة للمواطنين، كيف نسي هذا؟؟، كيف نسي أن اليوم عطلة رسمية، هنا فقط تذكر سبب تأخر الجميع في العمل، الهدف كان تعويض يوم العطلة، هنا فقط تذكر سبب اقامة الشاب حفلة في شقته، لأن اليوم عطلة رسمية، هنا فقط تنبه إلى عدم استيقاظ زوجته باكرًا كعادتها، هنا فقط أدرك لماذا الطابور كان أقصر من المعتاد، هنا فقط تنبه لماذا كان هذا الشعور بالكسل، وكأن عقله الباطن يريد اخباره بما سقط من ذاكرته، هنا فقط أدرك أنه قام بظبط المنبه على الخامسة و النصف فجرًا لأنها على ما يبدو العادة فقط، فلقد تعود على ذلك طوال عشرون عامًا.

«تررررررررررررررررررررررررررن» كان هذا الصوت التقليدي الرتيب للمنبه التقليدي على ذلك الكومودينو الدمياطي في تلك الغرفة البسيطة، معلناً عن اشارة عقربيه إلى الساعة الخامسة والنصف فجرًا، قام من مكانه مطأطأ الرأس مشعث الشعر يجر قدماه جـرًا، طرق باب الحمام، فتح الصنبور، نظر بشوق إلى «الدُش» في إنتظار هديل المياة، طال إنتظاره، لكن لم تهدل المياة، كل ما حصل عليه هو صوت زمجرة أقرب للحشرجة صحبها إرتجاج في المواسير، تذكر ما حد يوم أمس، إرتدى ملابسه وعاد إلى فراشه لينام من جديد، هو لا يتشائم أو يتفائل بمثل هذه الأمور، ولكنها على ما يبدو العادة، فلقد تعود على ذلك منذ ليلة أمس.

صاحب عربة الآيس كريم

على الرغم من ملامح وجهه التي توحي بالهدوء، إلا أن صوته كان جهوريًا، ليس من طبعه التكلم بهذا الصوت المرتفع، بل إن المعروف عنه أنه شخص هادئ الطباع، طيب الأخلاق، متفاهم بشكل كبير، بشوش، لكن للصبر حدود كما قالت كوكب الشرق، فهذه هي المرة السادسة التي يأتي فيها لمعمل التحاليل الطبية الذي تعاقدت معه الوحدة الصحية بقريته، المرة السادسة التي يطالب بإستلام نتيجة تحليل الدم، تلك النتيجة التي يتوقف عليها تحديد سفره من عدمه بعد حصوله أخيراً على عقد عمل مرضي في إحدى الدول العربية، الوقت يمر والأيام تجري بعيدة عنه، لا يستطيع اللحاق بها، والمسئولين في ذلك المعمل يتعاملون معه بكل استخفاف واستهتار، في كل مرة تقابله عبارة «فوت علينا كمان يومين»، يرى حلم عمره يتسرب من بين يديه بسبب أن بعض الموظفين لا يريدون القيام بما يجب عليهم القيام به، فقط لأنهم تركوا ضمائرهم في المنزل قبل الحضور... متأخرين كالعادة.

***

أغلقت جميع الأبواب في وجهه، بعدما تم فصله بطريقة تعسفية من عمله بعد أن كان مثالاً يحتذى به في الاستقامة والنزاهة والانضباط، الخطأ الذي اقترفه هو تمكنه من الاثبات رسميًا وجود تلاعب وسرقات في مخازن الشركة، سرقات كانت تتم بعلم المدير العام للشركة وبعض من محاسيبه المقربين، فالمال السايب يعلم السرقة، والمال العام سهل السرقة، ولأنه مازال يمتلك شيئًا ما يسمى ضمير، لم يستطع التغاضي عن ما كل ما يحدث، حاول فضح الأمر برمته، حاول كشف المستور، حاول انزال عقاب قانوني باللصوص، النتيجة تلخصت في تلفيق التهمة له وفصله من العمل، بعد أن ضاقت الدنيا به لم يجد أمامه إلا الوقوف بعربة آيس كريم على الطريق السريع، إختار لنفسه مكانًا أسفل شجرة كبيرة في الجزيرة الضيقة الموجودة بين الاتجاهين، بذلك يمكن لقائدي السيارات القادمة في كلا الاتجاهين رؤيته، عسى أن يقرر

أحدهم الشراء منه، خاصة سائقي النقل الثقيل، كان يعلم أنه لكي يشتري منه أي قائد سيارة لابد وأن يوقف سيارته في الناحية اليسرى من الطريق، الناحية التي تكون فيها السيارات قادمة مسرعة، هي مخاطرة ومجازفة من الجميع، لكن ما باليد حيلة، لقمة العيش لا ترحم ولا تعترف بالمخاطر.

***

ابتسم ابتسامة خفيفة أثناء قيادته لدراجته البخارية، كلما تذكر ضرورة ارتداءه الخوذة عند القيادة ابتسم، لديه إقتناع تام أن من يرتديها ليس سوى شخص جبان لا يحق له ركوب دراجات بخارية، لا يحق له الاستمتاع بها وبسرعتها، الاستمتاع بشقه الهواء إلى نصفين، هذه الخوذات صنعت للنساء لا للرجال، كثيرون أخبروه أنها للحماية إذا سقط بدراجته لأي سبب ما، قابل تحذيراتهم بسخرية أكبر، فهو قائد ماهر يهوى المخاطر والسرعات الجنونية، مقتنع بنظرية العمر واحد والرب واحد، ينسى أو يتناسى عمدًا مقولة «إعقلها وتوكل»، اليوم هو ذاهب إلى أحد معامل التحاليل الكبرى ليحلل عينات الدم الموجودة في تلك الحقيبة التي يلفها حول صدره، من المفترض ألا يذهب إلى أي مكان، فالمعمل الذي يعمل به والتابع لتلك الوحدة الصحية كان يشيع تجهيزه بكافة الأجهزة والامكانيات الحديثة لعمل أي تحاليل مطلوبة، لكن الحقيقة كانت عكس ذلك، فمدير الوحدة الصحية أنشأ سرًا معملاً للتحاليل، ثم أجبر أي مريض بالوحدة الصحية يرغب في اجراء تحليل ما بالذهاب إلى المعمل، مبررًا اصراره هذا باعتماد المعمل رسميًا بسبب نتائجه الدقيقة، لا يعلم أحد بأمر إرساله العينات سرًا لمعمل تحاليل آخر، ظل الأمر كذلك لا يعلمه إلا العاملين به، فقط حتى يكون ثروة يشتري بها أجهزة حديثة، هذا إن فعل.

شاهد تلك السيارة وهي تبطئ من سرعتها مقتربة منه، إستعد لطلب سائقها «بولة» آيس كريم، هذا بالفعل ما حدث، بدأ في تحضيرها وهو في قمة السعادة، فالعربة التي يعتمد عليها كدخل أساسي له بدأت تؤتي ثمارها، حتى

في هذا العمل البسيط مازال يراعي ضميره، هو مبدأ لا يتجزأ مهما إختلفت طبيعة العمل، ناول سائق السيارة «بولة» الآيس كريم، بدلاً من أن يتحرك السائق مبتعدًا بسيارته بقي واقـفـًا في مكانه يستمتع بما في فمه مستغلاً ظل تلك الشجرة الكبيرة، كأنه يريد التأكد من روعتها حتى يطلب واحدة أخرى، في أثناء حديثهما سمعا صوت صرير اطارات يحك الأسفلت، لحقه اصطدام قوي للغاية حرك السيارة من مكانها، ليفاجأ الإثنان بدراجة بخارية وقد اصطدمت بالسيارة من الخلف، هرول الجميع إلى راكب الدراجة الذي بدا عليه الاغماء، نزعوا عنه تلك الحقيبة التي يلفها حول صدره، في أول الأمر إعتقدوا أن الدماء المنتشرة على قميصه نتيجة اصابات فيه، إكتشفوا أنها لم تكن سوى أنابيب إختبار صغيرة بها بعض الدماء ومسجل على كل أنبوبة بعض البيانات، أفاق راكب الدراجة بعد فترة قصيرة، تفحص الحقيبة بلهفة، اكتشف انكسار جميع العينات التي كانت بالحقيبة، أغمى عليه مرة أخرى... من الخوف.

***

استمر في هياجه عسى أن يهتم به أحد العاملين لكن دون جدوى، فنتائج التحاليل المعروف عنها أنها تكون جاهزة في خلال ٢٤ ساعة، لكنه مر عليه حتى الآن أسبوعان، ولا يوجد شخص يريد اعطاءه تصريح واضح، أحد العاملين بعد تعبه من كثرة ما سببه هذا الرجل الهائج من صداع لكل الموجودين قال له ببرود تام «مالكش تحاليل عندنا»، تعجب من هذه العبارة، إعتقدها مزاح في أول الأمر، ثارت ثائرته من جديد عندما اكتشف جدية الحديث، إنفعل عليه جميع العاملين، أخبروه بعدم وجود نتائج تحاليل له ولا يوجد أي ورق يثبت تحليله هنا في الأساس، طلبوا منه مغادرة المكان قبل الاتصال بالشرطة، جن جنون الرجل لا يدري ماذا يفعل، آخر موعد للسفر غدًا صباحـًا، لم يعد لديه وقت للتحليل في أحد المعامل الأخرى، فات الأوان، أخبرهم بتقديمه شكاوي لأعلى المسؤولين، فقد لاحظ وجود رقم خاص للشكاوي تابع للوزارة

مكتوب بخط واضح أسفل اللوحة الخاصة بالتعليمات والارشادات العامة، أخرج هاتفه من جيبه ليخبرهم أنه جاد في تهديده، تجاهله الجميع، كتب الرقم الموجود أسفل اللوحة وإنتظر أن يرد عليه أحد، أخبرته رسالة مسجلة أن الرقم غير صحيح!!

عاد إلى منزله محبط، فرصة كهذه لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر، لن يكون حزينًا إن كانت قد ضاعت منه لعدم كفاءته، لكنها وللأسف ضاعت منه بسبب استهتار بعض موظفين مات لديهم أي احساس بالاخلاص، كان قد علق آماله على هذه السفرية لتحسين أوضاعه المالية والمعيشية، تألم كثيرًا، لا يدري ماذا يفعل، توقع أن يكون هذا عقابًا ربانيًا له، فكما تسبب آخرون في منعه من السفر وتدمير حياته، تسبب هو في فصل شخص آخر كان ملتزمًا في العمل ومثالاً يحتذى به في الإستقامة والنزاهة والانضباط، مشكلته الوحيدة أنه حاول... كشف المستور... فقط.

نظرات غريبة المعالم

نظر لي ذلك الموظف نظرة طويلة خالية من أية مشاعر، لا أذكر أين رأيتها من قبل، مع ذلك ينتابني شعور مؤكد أنها مرّت على ذاكرتي، هو أيضًا لم ينطق بحرف واحد يشفي غليلي، لم أكن أعلم ما الذي ينظر له بالتحديد مستخدمًا تلك النظرة عديمة الإحساس، هل السبب هي نظارة الشمس التي كنت أرتديها أثناء تحدثي معه؟ أم هو شعري اللامع المصفف بعناية؟ أم هو ذلك القميص الذي كلفني الكثير؟ أم هي الساعة التي تلمع مع ضوء الباقي من مصابيح الإنارة الغير محترقة؟ حقيقة لا أعلم، ولا أعتقد أنه من مكانه هذا يمكنه رؤية حزامي أو حذائي أو بنطالي، وأكيد ليست ملابسي الداخلية، إستمر على نفس تلك النظرة ثم تكلم أخيراً :-

«إنت عاوز إيه بقى؟»

أخبرته برغبتي تغيير العنوان القديم الموجود برقمي القومي إلى ذلك العنوان الجديد المكتوب في الإستمارة، نظر إلى الإستمارة ثم نظر إليَّ مرة أخرى بنفس تلك النظرة الغير واضحة المعالم، وكأن محمود مختار نفسه هو من حفرها على وجهه، انقلبت سحنته مرة واحدة، قائلاً بنبرة حادة :-

«إجري إلعب بعيد يا شاطر».

***

أبحث عن سلسلة المفاتيح لا أدري أين وضعتها، أو بالأحرى أين أضعتها، كالعادة أنسى دائمًا أين أضعها عند دخولي المنزل، قررت كثيراً بضرورة تحديد مكان أضع فيه هذه المفاتيح الماكرة، لكني دومًا ما أنسى أو أتناسى وكأني أستبشر خيراً في الصباح برحلة البحث عن المفاتيح... ثم الموبايل... ثم سماعة البلوتوث... ثم النظارة... وأحيانًا الساعة... وربما السيارة، خرجت من المنزل لست في عجلة من أمري، فاليوم لست ذاهبًا إلى العمل، بل ذاهب إلى مكان آخر فكرت كثيراً في جدوى الذهاب إليه من عدمه، وكان قراري النهائي بضرورة التغيير، لا لشيء، فقط حتى يكون كل شئ سليم، لا أحب ألا يكون كل شئ سليم وفي مكانه... بغض النظر عن النظارة والساعة والموبايل

والمفاتيح... والخ.
في هذا التوقيت ستكون الشوارع شبه خالية وهذا أجمل ما في الأمر، لا أحب الزحام، مع أنه أصبح أمرًا طبيعيًا تعودنا عليه، أصبح أمرًا لا يمكن العيش بدونه وكأنه إكسير حياة، إلا أني مازلت لا أحبه، أمنية أخرى كنت أتمناها في طريقي، عدم ازدحام مبنى مصلحة الأحوال المدنية، فيا حبذا لو إنتهت كل الاجراءات بسرعة، دخلت إلى الموظف الذي كان مازال يتناول طعام افطاره باعتباره إنسان من روح ودم لا بد وأن يملئ المعدة قبل مزاولته لعمله، لا يهم وضعه سندوتشات الفول المليئة بالزيت على بعض الأوراق الحكومية، أو أنه في الأساس لماذا لم يتناول افطاره في منزله؟ كل هذه أمور تافهة لا طائل من الكلام عنها، المهم إن معالي الباشا الموظف يكمل فطوره، بعد الإفطار لا بد من كوب شاي ساخن حتى ينتهي من تحزيم عقله، أما بخصوص المواطن الغلبان الواقف أمامه منتظرًا، فيمكنه البحث عما يلهيه، اشعال النار في نفسه أمر وارد.
عندما قال لي «إجري إلعب بعيد يا شاطر» أحسست برغبة في القفز في كرشه البالغ مترين عرضًا وطولاً، لكن هذا ما يبحث عنه أي موظف مخضرم، لأنه هنا سيجيد فن ادعاء الاصابة، لتصبح جناية تعدي على موظف أثناء تأديته لمهام عمله، باعتبار تناول الافطار من صميم طبيعة العمل، النتيجة دخولي السجن لمدة قد تصل إلى ستة أشهر، أما هو فسوف يحصل على أجازة مرضية (إصابة عمل)، المرتب لن ينقص منه مليم أحمر، أعتقد لهذا السبب يتعمد كثير من الموظفين اثارة واستفزاز المواطنين، عسى أن ينالوا إحدى الحسنين أجازة مرضية أو تعويض مادي محترم.
تمالكت أعصابي و ذهبت مباشرة إلى مديره المباشر، نظر إلى الاستمارة ثم إلى العنوان الجديد، الآن علمت من أين آتى ذلك الموظف بتلك النظرة الخالية من المعاني، إنهم يأخذون دورات تدريبية بعد التعيين مباشرة في كيفية إلقاء مثل هذه النظرات، وجدت المدير يرمقني بنفس تلك النظرة، وإن كان ذو

خبرة عن ذلك الموظف الذي يبدو أنه مازال مبتدئًا، نظرة المدير كانت تحمل الكثير والكثير من اللاشئ واللامعنى، نظرة تدل عن أنه لم يصل لهذا المنصب من فراغ، لكن لإجتهاده في إلقاء الكثير من النظرات المعبرة عن عمق الفراغ

«إنت عاوز إيه بقى؟»

تكلم بعد طول إنتظار وشوقة، تكلم ليسأل نفس السؤال، متقين أنا من وجود دورات تدريبية أيضًا في نوعية الأسئلة المقررة، بهدوء أوضحت رغبتي في تغيير العنوان القديم بذلك العنوان الجديد الموضح أمامه.

***

الاسترخاء أمر ممتع، خاصة بعد وجبة غداء دسمة، أجلس أمام التلفاز، يدي اليمنى تحمل كوب نسكافيه ساخن، اليسرى تحمل «الريموت كنترول» تقلب به بين القنوات، توقفت عند أحد البرامج الحوارية التي كانت تستضيف أحد الوزراء، أعجبني الحوار، أعجبتني الأسئلة، والأكثر منها الاجابات المنطقية، شعرت فيها بالمسئولية، دراسة تفصيلية، حلول منسقة لكل مشاكل الحياة الغير منسقة، رأيت بعين المستقبل رخاء يهل علينا، ارتفاع دخل الفرد، انتهاء أزمة إرتفاع الأسعار، اختفاء عمليات النصب والإحتيال باسم الدين أو باسم الثورة أو باسم الحرية، انتهاء أزمة الوقود، انتهاء أزمة خبز، انتهاء.... أفقت من أحلامي بعدما تهدم كل شئ دفعة واحدة، بعد ذلك التصريح الوزاري الأخير

«السوق ملئ بالمنتجات المحلية، أكثر من ٩٠٪ من المنتجات الموجودة بالسوق الآن هي منتجات محلية الصنع»

توقفت عند التصريح كثيراً جـدًا، لم أستمع لباقي اللقاء، تأملت تلك النظرة التي تحتل عين ذلك المسئول، لا أدري أين ضاعت كل التعبيرات الايجابية من وجهه لتحل محلها تلك النظرة السلبية... لعلها ليست نظرة سلبية، لعلها

تعني شيئًا آخر... شيئًا لا نهائيًا... ربما هو الفراغ.

توجهت إلى مكتب السجل المدني، في يدي إستمارة تعديل بيانات الرقم القومي، الشئ الوحيد الذي كنت أريد تغييره هو عنوان الاقامة، كتبت عنوانًا في الصين، هذا هو الحل الوحيد، أني أعيش الآن في جمهورية الصين العربية الشعبية، بذلك تصبح كافة المنتجات محلية الصنع، وكان هذا ما أوضحته للمدير وللموظف من قبله، لكنه مع ذلك مازال يرمقني بتلك النظرة العجيبة!!

عابـر سبـيـل

أحد الأيام شديدة الحرارة، أسير على رصيف ليس فيه موضع لقدم بعدما أعلن الباعة الجائلون احتلاله رسميًا، رجل ضخم الجثة يصل طوله قرابة المترين، عريض المنكبين، أصلع الرأس، وزنه يتعدى المائتان كيلوجرامًا بمراحل، تمسك يده اليمنى طفلاً لا يتعدى عمره العشرة أعوام، ضئيل الحجم، رث الثياب، ضربات اليد اليسرى لذلك العملاق تنهال على الطفل بلا توقف بلا كلل، بوجه عام يبدو أنه يكسب قوت يومه من خلال استعمال يده كمطرقة، فكل ضربة من يده كادت أن تطيح بالطفل لتلصقه بالجدار، لولا امساك الرجل به جيدًا خوفًا من هروبه.

العجيب ورغم كل هذه الضربات، كان الطفل يحاول جاهدًا الرد بالمثل، فيأتي الرد متمثلاً في ضربات سفلية مستمرة يسددها بقدميه، أيضًا حاول عض يد الرجل عدة مرات، كان ينجح أحيانًا، لتزداد ثورة الرجل وغضبه، فتزداد ضرباته قوة وقسوة، لا أعلم من أين آتى صاحب هذا الوجه الملائكي بكل هذه الطاقة ليتحمل كل هذه الضربات التي أوجعتني أنا شخصيًا مع أني أشاهد ما يحدث مصادفة وأنا عابر في سبيلي.

بدأ الناس يتجمعون، يتزاحمون، كل مهتم بألا تفوته ضربة من الضربات أو ركلة من الركلات أو أحد حركات المقاومة المشروعة التي تصدر عن الطفل، كأنهم يشاهدون مباراة في التلفاز لا عراك حقيقي قد يودي بحياة طفل!، بدأ السؤال عن سبب ضرب الرجل للطفل، لا توجد اجابة محددة

«ده راجل مفتري قوي «

«هتلاقيه مخبر وشايف نفسه»

«أكيد الواد ده حرامي... شكله بيقول كده»

«حد يحوش الولد الغلبان ده يا جماعة»

مع كل هذه التعليقات إكتفى الجميع بالمشاهدة، وإن كان البعض قد أبدى بعض ردود الأفعال الايجابية، متمثلة في حسن اظهار الامتعاض.

أحد الأيام شديدة الحرارة، طفل في العاشرة من عمره، قمحي البشرة، ضئيل الحجم، رث الثياب، يحاول الهرب من أشعة الشمس المحرقة التي ازدادات حرارتها مع تغير المناخ للأسوء، إحتمى الطفل بظل سيارة فارهة تقف أعلى الرصيف، اختار هذه السيارة بالذات لأن صاحبها أوقفها هنا منذ قليل، رآه من بعيد، غالبًا ما يعني هذا تأخر صاحب السيارة عن التحرك بها مجددًا، هذا ما جال في عقله، كم يتمنى أن يكون محقًا، ستكون فرصة جيدة بالنسبة له، في ظل عدم وجود أي مظلات تقي المارة هذه الحرارة، استند الطفل بيده المتسخة على السيارة، الإعياء واضح عليه، تلفته يمينًا ويسارًا يؤكد بحثه عن شيئًا ما أو شخصًا ما، مظهر ثيابه الرثة يوحي باحتمالية بحثه عن بقايا طعام ملقاه على الأرض، أو على الأقل العثور على من يساعده في شراء الطعام.

فوجئ الطفل برجل ضخم الجثة، طوله يصل المترين، عريض المنكبين، أصلع الرأس، وزنه يتعدى المائتان كيلوجرامًا، يمسك به من ملابسه، كانت هناك نظرات مختلفة في أعين كل منهما، نظرات الرجل تحمل كل معاني الغضب والكراهية، نظرات الطفل تحمل كل معاني الدهشة والخوف، قبل خروج أي كلمة من فم الرجل أمسك بالطفل ليمنع هروبه، ثم إنهال عليه ضربًا، لم يكن هناك مبرر واضح سوى أن هذا الرجل يحمل في صدره كمية لا بأس بها من الافتراء، ليس لديه رحمة بالضعفاء، مستغلاً ضخامة جسده أسوء إستغلال، أثناء ضرب الرجل للطفل كانت تخرج منه بعض العبارات الغاضبة

«أنا هاطلع عينك يا إبن الـ.....»

«محدش هيرحمك مني المرة دي»

«ده منظر ... كده بوظت العربية»

قالها مشيراً لأثار يد الطفل الملوثة لمقدمة السيارة

أحد الأيام شديدة الحرارة، وقفت سيارة سمراء كبيرة الحجم أعلى الرصيف، ترجل منها رجل ضخم الجثة، عريض المنكبين، أصلع الرأس، لم يبالي إذا كان بهذه الطريقة سيمنع المارة من استخدام الرصيف، ربما لاحظ احتلال الباعة الجائلين له، ربما لاحظ انتشار «الباترينات» أو كراسي أصحاب المحلات أو كراسي الكافتريات، ربما لم يلاحظ كل ما سبق لكنها طبيعته المتكبرة، أحكم الرجل غلق السيارة، اتجه إلى داخل أحد المحلات مسرعًا، يبدو أنه على موعد هام..

لم تكن تمر دقيقة حتى اقترب طفل من السيارة، ملامحه توحي أنه في العاشرة من عمره، ضئيل الحجم، رث الثياب، تلفت حوله يمينًا ويسارًا، تأكد من أن أحدًا لا يراه، تظاهر باستناده على السيارة كمحاولة للهروب من أشعة الشمس، محاولة لتخفيف الإعياء الذي يتظاهر بأنه يشعر به، في الحقيقة كانت يده تخفي مشرطًا حادًا يستخدمه في خلع علامات السيارة من مكانها، كثيراً ما فعل ذلك، هو مصدر دخل جيد، فالعلامة تباع لسائق التوك توك بخمسة جنيهات.

رآه صاحب السيارة الذي كان يراقب سيارته من داخل المحل، هجم مسرعًا في خفة قبل هروب الطفل، أمسكه من ملابسه، إنهال عليه ضربًا، نظرات الطفل كانت تحمل كل معاني الدهشة لأنه لا يعلم كيف رآه، وكل معاني الخوف لأنه يعلم المصير الذي ينتظره، نظرات الرجل كانت تحمل كل معاني الغضب لأن الطفل أتلف السيارة، وكل معاني الكراهية لأنها المرة الخامسة التي يشتري فيها علامات جديدة للسيارة.

أشار الرجل لمكان العلامة التالف قائلاً للطفل

« ده منظر ... كده بوظت العربية «.

ثلاثة أيـام فقط

يصعد درجات السلـم ببطء، كم يتمنى أن يقفز، لكن هذا لا يجوز، يجب المحافظة على مظهره العام، ينظر حينـًا إلى تلك الدرجات المغطاة بتلك السجادة الحمراء، ثم يعود مرة أخرى للنظر أمامه، هو في أبهى صورته اليوم، الشعر مصفف بعناية فائقة، ذهب لحلاق محترف، بدلة جديدة غالية الثمن... بل يمكن القول أنها باهظة الثمن، حذاء لامع تنعكس عليه أضواء الكاميرات التي يأخذ حامليها عشرات الصور له، صور يثق أنها ستزين صحف الغد، وربما عدة أيام مقبلة.

***

حالة من الاكتئاب تسيطر على كل عضو من أعضاء جسده، طوال حياته لم يحقق أي نوع من أنواع النجاح، في دراسته كان فاشلاً، بالكاد يحقق النجاح بعدما يستعين بمجهودات بعض زملائه، عندما أنهى المرحلة الثانوية لم يسعفه مجموعه المنخفض الالتحاق بكلية ذات مستقبل مرموق، أو حتى أحد الكليات الأدبية التي يـُنظر لها بنظرة أُقل غير مبررة، مصيره تحدد في أحد المعاهد الخاصة الغير معروف فائدة حقيقية لها سوى نهب الكثير والكثير من أموال الطلبة... أو أموال أولياء أمور الطلبة بمعنى أكثر دقة، رغم ذلك تخرج بعد عناء، أيضًا بعدما حصل على مساعدات تلقاها من زملائه.
رجع إلى المنزل قبيل الفجر بقليل، نظـر بشئ من الفخر إلى تلك الجائزة التي حصل عليها، تمنى كثيـرًا لو كان أبواه مازالا على قيد الحياة في هذه اللحظة، كان يريد رؤية الافتخار في أعينهما، الافتخار بما حققه من إنجاز، من كان يصدق أن ذلك الشاب الفاشل دراسيـًا المتنقل بإستمرار من وظيفة لأخرى توجد به كل هذا الطاقة الابداعية، طاقة جعلت منه صاحب أفضل عمل أدبي لهذا العام، عمل إنتشر بين الأوساط الأدبية مثيرًا الكثير من الجدل، الكل تكلم باعجاب عن ذلك الكاتب الناشئ القادم من الأقاليم الذي فجر مفاجئة بكتابه الساخر الأول، كتاب يغوص في أعماق النفس البشرية، أعماق لم يقترب منها أحد من قبل، أعماق تجعل القارئ يبكي من كثرة الضحك.

***

بعد طرده من وظيفته الأخيرة أظلمت الدنيا في وجهه، طرد لعدم إلتزامه بالمواعيد المقررة للحضور والانصراف، تكرر كثيراً حضوره في وقت متأخر، تكرر كثيراً طلبه الانصراف مبكرًا، دومًا وراءه عذر ما، كان يعمل أمينًا لأحد المكتبات العامة، وظيفة يمقتها من كل قلبه، ملزم بالجلوس وسط كائنات لا يحبها، كائنات تسمى الكتب، لا يحب القراءة منذ الصغر، ربما كان هذا سر عدم تفوقه، لذا لم يكن يتخيل في يوم من الأيام أن تجبره الظروف على العمل وسط هذه الكمية المهولة من الكتب التي لا يريد حتى معرفة شيء عن محتواها، لولا الظروف لرفض الوظيفة، لكن بعد وفاة والده لم يعد له هو ووالدته أي باب رزق آخر، والده أنفق أغلب أمواله عليه حتى يكمل تعليمه في ذلك المعهد، ثم جاء مرض أبيه في شهوره الأخيرة ليقضي على الأخضر واليابس فلم يتبقى شيء من ثروته.

عمله في المكتبة احتوى على الكثير من الملل، القليل من العمل، لكنه مع ذلك لم تتخلله القراءة، في يوم طلب منه تسجيل كافة الكتب الموجودة في المكتبة على ذلك الجهاز الجديد، أخيراً واكبت المكتبة بعد مظاهر التطور التكنولوجي، قرار مفاجئ بتسجيل أسماء كل الكتب الموجودة بها على الحاسب الآلي، ومن ثم توصيل الجهاز بشبكة تربط بين جميع المكتبات العامة الموجودة في أنحاء الجمهورية، كخطوة أولى، الخطوة الثانية تحويل تلك الكتب إلى كتب إلكترونية حتى يتمكن أي شخص من قراءة أي كتاب موجود في أي مكان، على الرغم من أن المهمة الجديدة ستملئ عليه وقت فراغه إلا أنه امتعض منها، سوف يضطر آسفًا للقراءة، حتى لو كانت القراءة مقتصرة على العنوان فقط.

***

لم يعلّمه أحد، لم يلتحق باحدى كليات الاعلام، السر يتلخص في الموهبة الربانية، هي التي فرضت نفسها عليه، وعلى خياله، وعلى حياته نفسها، موهبة ربانية صحبتها هواية القراءة، هواية ظهرت عليه فجأة، هواية وموهبة جعلتا أسلوبه يتصف بالسهل الممتنع، لذا أعجب به الكثيرون، لم يكن يبحث عن شهرة أو مال أو أي مكسب شخصي، كل ما كان يبحث عنه هو ترتيب وتنظيم وتفريغ ما يدور في عقله من أفكار وابداعات ومواقف سجلتها عيناه وحفظتها ذاكرته، لم يهتم كثيراً إذا كانت كتاباته يقرأها أحد أم أنها تذهب أدراج الرياح، كل ما كان يبحث عنه هو التعبير.

تصفح الجريدة في لهفة، يتوقع وجود صورة له، ماحدث بالأمس لن يمر مرور الكرام، عشرات الصور ألتقتت له، وجدها أخيراً، صورة كبيرة له، أكبر مما كان يتصور، لم تكن بالألوان كما كان يتصور، ترك الصورة وذهب إلى العنوان قرأه متمنيًا أن يكون كل هذا ليس أكثر من حلم مزعج، «أجرء لص في التاريخ»، هذا هو العنوان الذي قرأته عيناه، ونطقه لسانه، وسمعه قلبه، ليصرخ عقله رافضًا له في فزع، إنكشف أمره وضاعت نشوة الانتصار بعدما استمتع بها لمدة ثلاثة أيام فقط، كانت هذه أسعد ثلاثة أيام في حياته، ربما هي الأيام الوحيدة التي وجد السعادة فيها، الآن فقط يحمد الله على أن أبويه قد ماتا، لم يكن ليستطيعا الصبر على تلك اللحظة القاسية.

***

بينما كان يسجل أسماء الكتب على الحاسب الآلي الجديد لفت انتباهه عنوانًا غريبًا لأحد الكتب، «كن مشهورًا في دقائق»، لا يدري لماذا جذبه ذلك العنوان، ترك عمله وبدأ في القراءة، هو الذي يكره من يهوون القراءة وجد نفسه بدون مقدمات يلتهم أوراق ذلك الكتاب إلتهامًا كأنه متسول رأى طعامًا بعد ثلاثة أيام من الجوع، بعد الإلتهام بدأ التنفيذ، والتنفيذ هنا لم يكن يعني الإبداع، إنما يعني البحث عن ضحية تنطبق عليها مواصفات محددة، كان البحث مرهق لكن كانت النتيجة مرضية، ضحية مثالية تمتلك مدونة مغمورة مليئة بما لذ وطاب من الأعمال الأدبية المتنوعة، قرأ بعض الأعمال في عجالة، مع ذلك تأثر قلبه، كل ما عليه الآن هو الاختيار... حسن الاختيار.

***

بعد فوزه بالجائزة بثلاثة أيام دُعي لحضور مؤتمر صحفي بأحد الفنادق التي تحمل على كتفها سبعة نجوم، الهدف الرئيسي من المؤتمر أو الندوة مناقشة كتابه الذي حقق أعلى مبيعات في زمن قياسي بالنسبة لكاتب شاب مجهول الهوية، رحّب بذلك، فلا بأس من مزيد من الشهرة، وسط صيحات الاعجاب وترانيم التصفيق في الندوة وقف شاب يسأل عن مضمون الكتاب، استفسر عن كل كبيرة وصغيرة، نظر يحيى إلى عين ذلك الشاب، بادله الشاب نظرة تحمل كافة معاني الصرامة، تعرفا على بعضهما البعض، فالشاب هو صاحب المدونة المغمورة والمبدع الحقيقي لهذه الأفكار، ويحيى هو اللص الذي سرق بعض الأعمال وقدمها على أنها إبداعه الشخصي ليحصل بها على جائزة لم يكن يحلم أبدًا بلمسها من قبل، علم الحضور الحقيقة المفجعة، إنهال عليه الجميع بنظرات كالرصاص تخترق جسده، تقطعه إربًا، إنهال عليه المصورين بلقطات سريعة، وكيف لا وهو أجرء لص في التاريخ.

ابتسامة وداع

تركض كما لم تركض من قبل، أو ربما لم تركض في حياتها قبل هذه المرة، لم يكن هناك داع للركض فيما مضى، لذا لا توجد خبرات سابقة تستند عليها، كما أنها الأولى قد تكون الأخيرة، ذلك يعتمد على مدى تحملها وتأقلمها مع الظروف المستجدة، ترتدي حذاء بكعب عالٍ بما لا يتناسب مع الموقف، كنتيجة متوقعة تكرر سقوطها، تدمت يدها اليمنى من كثرة السقطات، ذلك أنها بيدها اليسرى كانت تحمل طفلها الذي بالكاد بلغ شهره الخامس.

***

إشترى زوجها أخيراً السيارة الجديدة التي طالما حلما بها، طالما نظرا إلى صورتها في الصحف، طالما قرأ عن امكانياتها، سعيدة للغاية لأنه قرر إصطحابهما هي وطفلهما المولود حديثـًا في رحلة قصيرة لن تستغرق أكثرمن ثلاثة أيام، كثيراً ما وعدها من قبل لكن ظروف عمله كانت تمنعه، فرصة أخيراً لقضاء بعض الأيام الرومانسية التي تعيد لها ذكريات فترة الخطوبة، كما أنها فرصة له لتجربة إمكانيات تلك السيارة الجديدة.

***

أشار لها بيده دون أن يتكلم، أشار لها أن تبتعد بقدر ما تستطيع، قـبّـل طفله قبلة طويلة، وكأنها القبلة الأخيرة، حتى الطفل نفسه شعر بأنها قبلة وداع، نظر إلى والده وابتسم، ابتسم ليودعه، في لحظات كهذه يبكي الأطفال، لكن الطفل تصرف وكأنه يعلم حقيقة الموقف، إذا صدر منه صوت فسوف يعرف الباقيين المكان الذي يختبؤن فيه، لذا ظل صامتـًا..... مبتسمـًا.

***

«الليلة دي سيبني أقول و أحب فيك و انسى كل الدنيا دي وغمض عينيك»، تعالت كلمات الأغنية داخل السيارة، أغمضت عينيها وهي تغني، زوجها يغني معها، بين الحين والآخر يرمقها بطرف عينه، وكأنه يعبق ذاكرته بصورتها

وهي تغني معه، أمسك يدها ورفعها ليقبلها، كيف لا وهذه الأغنية لها سحر خاص بهما، أغنية تلازمهما أينما ذهبا، وكأنها طفلهما الآخر، لقد كانت الأغنية التي رقصا عليها في ليلة الزفاف، ليلة عمرهما التي لا تنسى، أثناء غنائها وانسجامهما معًا لم ينتبها إلى تلك السيارتان اللتلان تقتربان منهما في بطء مرعب ينذر بوقوع كارثة.

في رعب وارتباك أخرجت هاتفها واتصلت بالنجدة، الدموع تنهمر من عينيها تغرق خديها تبلل شفتيها تتساقط على قميصها، أخبرت من يحدثها بصوت مرتجف بتعرضهم لهجوم مسلح من رجال ملثمين يطلقون النيران على السيارة بلا انقطاع، ببرود سألها محدثها عن موقعها، سألت زوجها عن مكانهما بالتحديد، أخبرها أنه لا يدري، الطريق الدولي الساحلي معظمه متشابه، لا توجد عليه أي علامات أو ارشادات، بنفس البرود أخبرها ذلك الشخص أنه لا يستطيع تحديد المكان بدقة، غالبًا هم في منطقة تتبع محافظة أخرى، وعدها بأنه سيتصل بالأمن في محافظة كفر الشيخ ليخبرهم بالواقعة، وأغلق الخط.

أحاطت بطفلها، كأنها تعيده إلى رحمها مرة أخرى خوفـًا عليه من زجاج السيارة المتطاير في كل اتجاه، أما زوجها فقد أطلق للسيارة العنان، سألها أقصى طاقتها وأجابت، انطلق بسرعة جنونية، لكنها لن تكون أكثر جنونـًا من الموقف الذي هم فيه، أراد الفرار من هؤلاء الذي يطاردونه يحاولون اللحاق به، بعد عدة دقائق تتجاوز النصف ساعة أدرك عدم وجود فائدة من السرعة، فالسيارتان اللتلان تطاردانه تقتربان منه مع كل ثانية، كفائتهما أعلى منه بكثير، حاول إلتقاط أرقام اللوحات المعدنية، كما توقع، لا توجد لوحات معدنية، فقط وابل لا ينقطع من الرصاص لإرغامه على التوقف، طلب من زوجته الاتصال بالنجدة.

لم يجد حلاً للهروب من هذا الموقف سوى الدخول بسيارته وسط الأراضي الزراعية، ربما إذا عثر المسلحون على السيارة خاوية يتركونهم ويرحلوا، وقتها

يمكنهم الهرب وسط سنابل القمح، أو على أقل تقدير الإختباء حتى بزوخ فجر النهار، في حركة مفاجئة نفذ ما فكر به، أطفأ نور السيارة، انحرف بها عن الطريق لتختفي في لمح البصر تحت ستار من الأتربة المتصاعدة، سار بها مسافة مسافة قصيرة ليصطدم بشيء ما لم يره في الظلام، ترجل منها مع زوجته حاملة الطفل، ركضا بعيدًا عن مكان السيارة، هذه التصرف المفاجئ أعطاه بعض الوقت، كان يطمئن زوجته، غالبًا لن يلحق بهما أحد، في قرارة نفسه كان يعلم أنهم سيعودون... قريبًا.

ترجل الملثمون من السيارتين، قرار لا إرادي تحكم في عقولهم يقضي بضرورة القضاء على أصحاب هذه السيارة، حتى لو لم يسرقوا السيارة، لم تنطلي عليهم خدعة الاختباء داخل الأراضي الزراعية، أوقفا السيارتين في مواجهة الأرض الزراعية، كثير من السنابل تكسرت من أثر اختراق السيارة لها، أضاءوا كافة أنوارهما، تحولت الأرض التي كانت منذ قليل خير تعريف للظلمة إلى مكان مكشوف تضيئه نور الصباح، نزلوا جميعًا بحثًا عن أصحاب السيارة.

الأفضل..!

تصرفاته فضحته، حتى الشخص الذي حرم من حاسة البصر كان يمكنه بوضوح رؤية كيف تغيرت طريقته في إدارة الحديث وتبادل النقاش، طريقته في وصف أي موقف أي كان، طريقته في القفز من مكانه فور سماعه صوت أحد رنات هاتفه المحمول الذي إشتراه حديثـًا فجأة بعد أن كان معترضـًا على حمل جهاز كهذا، كان من هؤلاء الذي يرون المحمول اختراعـًا استفزازيـًا، حتى طريقته في إرتداء ملابسه، إختلفت تمامـًا.

إنه هشام، ذلك الشخص الذي انضم حديثـًا إلى فريق العمل بالشركة، لم نكن نعلم عنه الكثير، ببساطة هو لا يتلفظ بالكثير، نادرًا ما تخرج من بين شفتيه كلمة أو تعليق، لم يندمج معنا كما كان يندمج كل فرد جديد ينضم لنا كنوع من الود وأحيانـًا اتقاء شر، كلماته هذا إن تحدث كانت عن العمل، عن العمل فقط، لا أكثر ولا أقل، بعضنا لوقت قريب كان لا يعلم أين يسكن بالتحديد هذا الهشام.

بعد فترة قضاها معنا حاولنا كثيراً ضمه لقائمة الأصدقاء، طلبنا منه مرافقتنا في الرحلات أو السهرات التي ننظمها بصفة مستمرة، دائمـًا يرفض، يتحجج بوجود بعض الارتباطات لديه، في أول الأمر إعتقدناه غير ميسور الحال لا يقوى على مصاريف كهذه، ثم توهمناه خجولاً لا توجد لديه شجاعة التعرف على أشخاص دخلوا حياته فجأة دون استئذان، في النهاية رأيناه مغرورًا، لا يرضى مصاحبة من هم أقل منه منزلة أو ثقافة... هذا من وجهة نظره طبعـًا.

حاولنا تجاهله أكثر من مرة، لكن به شيء ما يشبه المغناطيس، شيء ما يجذبنا نحوه، فنعود للمحاولة مرة بعد أخرى، بعد كل محاولة فاشلة كان لابد من جلسة سخرية ونميمة، نقر فيها قرارًا جماعيـًا بعدم الاقتراب منه، ومعاملته ككم مهمل، لكن ما إن نراه في اليوم التالي حتى ننسى تمامـًا ما أقريناه، فنحاول معه من جديد، ثم نعود لجلسات السخرية والنميمة من جديد، غير مدركين هل كنا حقـًا نسخر منه، أم نسخر من أنفسنا.

تصرفاته فضحته، حتى الشخص الذي حرم من حاسة البصر كان يمكنه بوضوح

رؤية كيف تغيرت طريقته في الحديث والنقاش، في أول الأمر بدأ يتقرب لنا، بدأ يتودد لنا، بعد ذلك بدأ في خلق مواضيع للنقاش، مواضيع توصف بأنها شائكة، مواضيع توصف بأنها سياسة، بدأ يتحاور، يتجادل، يتجاوب معنا، بدأ يسأل كثيرًا عن أمور بدت لنا بديهية ومن أساسيات الحياة، لكن كان في حقيقة الأمر يعيد تنظيم تفكير كل منا دون أن ندري، ومع هذا التغيير في التعامل لم يكن ممكنًا أبدًا معرفة ما يدور في عقله، فتعابير وجهه مازالت لا تشف عن ما يخبئه عقله.

وسط أحد جلسات النقاش رن هاتفه المحمول الذي إشتراه مؤخرًا كالعادة دون اخبار أحد منا عن سبب تغيير رأيه وفكره، أخرجه من جيبه في لهفة، إنزوى به في أحد أركان المكتب البعيدة، تكلم بصوت منخفض واضعًا يده على فمه، تبادلنا النظرات، هشام أخيرًا ظهرت عليه أحد الأعراض الآدمية، أعراض نسميها نحن معشر البشر بالعلاقة العاطفية، رغم هذا كله لم يكن ممكنًا معرفة ما يدور في عقله إلا إن أفصح عنه هو.

تحول الغمز واللمز بيننا من السخرية من هشام إلى الحديث عن هشام، أصبح هو محور ومحرك الأحداث، حتى وإن كان غير موجود، نظل نتحدث عنه، تحولت السخرية إلى اهتمام، والاهتمام إلى اعجاب، والاعجاب إلى تأييد، والتأييد إلى ولاء، تساءلنا من هذه التي يكلمها بكل هذه الأهمية والتوتر والإشتياق؟؟، كيف وأين تعرف عليها؟؟، الأهم منذ متى؟؟، كالعادة أسئلة بلا أجوبة، هشام لم يفصح عنها أي شيء

اليوم السبت، ذهبنا إلى الشركة، منذ الوهلة الأولى يتضح أن اليوم لم يكن مثل باقي الأيام، اليوم كان الوجوم يسيطر على الجميع، بالأمس شاهدنا جميعًا ماحدث، شاهدنا كيف كان يقف في الصفوف الأمامية، كيف كان يصرخ بأعلى صوت، كيف كان يشد من أزر الجميع، كيف كان يتحمل ضربات العساكر، كيف كان يقاوم، كيف كان يعبر عن رأي كل شخص منا بكل سليمة، كيف كان يدافع عن حقوقنا، كيف كان يدافع حتى عن

جلسات النميمة والسخرية، كيف كان يدافع عن من هم واقفون بجواره فوق كوبري قصر النيل، كيف كان يحاول الصمود أمام المياة الساخنة التي تخرق المكان، في النهاية رأينا كيف تصيده أحدهم ليسقط هشام شهيدًا... أمام أعين الجميع.

اليوم فقط عرفنا لما كان قليل الكلام، ببساطة هذا طبع الزعماء، اليوم فقط عرفنا لما كان لا يستسلم لإغراءات السهرات والرحلات، ببساطة كانت وراءه قضية أكبر، اليوم فقط عرفنا أنه لم يكن مغرورًا أو خجولاً أو تافهًا، اليوم فقط عرفنا أن كلامه معنا لم يكن إلا شحنًا لأفكارنا، اليوم فقط عرفنا أنه مازال... أفضل منا بمراحل.

هجمت الجمال والأحصنة على الميدان، وقفنا جميعًا عازمين على صدها، أمامنا وقف هشام يحثنا، يشجعنا، يقوي عزيمتنا، يمنينا بالنصر، لم يكن هذا هشام الذي نعرفه، هو شخص آخر، هشام الذي نعرفه استشهد، لكن هناك مليون هشام آخر.

صاحبة عربة الآيس كريم

شمس تشرق في هدوء رائع جذاب، كعادتها ترسل أشعتها الدافئة في خجل كأنها تخبر الجميع بقدومها في موعدها، كالعادة دون تأخير، كالعادة بمنتهى الرقة، كما تركت الجميع بالأمس وجدتهم اليوم، الرمال تتطاير بنعومة وخفة، أطراف أنامل مياة البحر مازالت تتلاعب ببعض حبات الرمال في جو يكسوه الحب والود، الطيور محلقة عاليًا، وإن كان يمكن سماع أًصواتها التي تشق صوت الصمت، بعض رواد الشاطئ بدأوا يقبلون فرحين.

لم تكن شمس السماء أقصد، بل شمس أخرى، شمس تعيش بيننا، شمس تجدد الصبا في جسدك كلما إلتقت عيناك بعينيها، تلك الفتاة صاحبة عربة الآيس كريم كانت الشمس التي أقصدها، اسمها شمس وهي شمس المكان حقًا، كانت قبلة رواد الشاطئ، يأتونها فرحين، فقط ليشتروا منها الآيس كريم، إذ تذوقته قد لا تراه مميزًا عن باقي العربات التي تقف بعيدًا على مرمى البصر، لكن السر ليس في الآيس كريم، السر يمكن في الشمس.

لم تغير مكانها طوال حياتها، وكيف تغيره وقد أصبح ملكًا لها، لم تشتريه ولا تملك عقد ملكية، هذه أمور شكلية لا تعنيها ولا تشغل لها بالاً، هي فقط تعلم أنها موجودة هنا، لا تتذكر منذ متى، لا تتذكر كيف، لا تتذكر لماذا، تتذكر فقط وجودها في هذا المكان، حتى المصطفين الذين يحضرون عامًا تلو الآخر أصبحوا يعرفون هذا المكان بها، بصاحبة عربة الآيس كريم، تدريجيًا تحول إسم الشاطئ إلى شاطئ الآيس كريم.

منذ عدة أيام لاحظت تطورًا غريبًا يصيب الشاطئ ويغير من معالمه، غرباء بدأوا الانتشار في المكان، الدخل الوفير الذي كانت تجنيه أصبح على ما يبدو مطمعًا لأصحاب العقول المريضة والنفوس الكريهة والقلوب الخبيثة، رويدًا رويدًا بدأوا يحيطون بها بعرباتهم من كل صوب، حاولوا ونجحوا، إذا ذهبت إلى الشاطئ الآن لن تتمكن من تمييز عربتها وسط هذا الكم الهائل من العربات المحيطة بعربة شمس مخفية إياها عن الأنظار.

إختارت لنفسها مكانًا جديدًا، بعيدًا عن باقي بائعي الآيس كريم هؤلاء

الذين انتشروا بعرباتهم على طول شاطئ البحر، محتلين مكانها القديم، إختارته لعدم رغبتها الاحتكاك بهم، السبب الذي أعلنته لبعض زبائنها هو قدرة هؤلاء البائعيين على طردها بسهولة من الشاطئ كله، هي شابة ضعيفة مكسورة الجناح كما يقولون، الحيوية التي بداخلها لن تسعفها أبدًا في حالات المواجهة، ذلك بعدما تخلى عنها من كانوا يعدونها بالحماية، السبب الذي لم تعلنه لأحد ونجحت في إخفاءه جيدًا داخل عباءتها السوداء الفضفاضة، أنها لكي تنجح في جذب المصطفين إليها لابد من رفع صوتها بالنداء، هي تخجل من هذا كما أنها لا تقوى على منافسة أصحاب الصوت الجهوري هؤلاء، فأصواتهم عالية مدوية و كأنهم ولدوا بها، لذلك كان إيثار السلم هو أنسب إختيار.

بشاشة في الوجه، وجمال هادئ، وطريقة كلام ناعمة، وصوت دافئ، كلها صفات جعلت الكثير من المصطفين يصرون على الذهاب إليها، أصبح الأمر وكأنه نزهة خفيفة لهم، حتى لو كانت نزهة وقت الظهيرة، فما أحلى السير على الرمال، حيث تدغدغ حباتها الناعمة باطن القدم، وبين الحين والآخر تصطدم المياة الباردة بالأرجل في حنان جارف، وكأن الكل تغيرت صفاته لتتناسب مع رقة من تقف في المكان.

إقبال ومحبة لصاحبة العربة سببا لها الكثير من الفرحة، الكثير من المال، كذلك سببا لها الكثير من الحقد والغل لدى أعداءها، المثل القديم المتجدد يقول «عدوك إبن كارك»، بعدما طردوها أول الأمر من مكانها، بدأوا يفرضون عليها الإتاوات، بدأوا يشاركونها غصبًا في أرباح عربتها، استنجدت بالجميع، تجاهلها الكل، حتى المسئول عن الشاطئ تصرف وكأن شيئًا لم يحدث، كل ما حصلت عليه هو تعاطف بعض المصطفين، وليس جميعهم، مسئول الشاطئ وعد الباعة باستقطاع جزء من دخل شمس واعطائهم اياه، فقط حتى يرضيهم ويأمن شرهم، الذي لا يملك أعطى وعدًا لمن لا يستحق.

ضاع منها مكانها القديم، ضاع منها مكانها الجديد، ثم ضاعت عربتها، ومع

مرور الوقت ووقوع أحداث كثيرة نسي كثيرون إسمها، ثم نـُسي شكلها، ثم حرف تاريخ الشاطئ بأكمله، بدأ المصطفون يميزون المكان بأسماء أخرى، أسماء غريبة لا يعلم أحد أي عقل صهيوني إبتكرها.

ظللت مبتسمـًا

نظر لي دون النطق بكلمة، ذلك الظابط الذي تدل الثلاثة نجوم على كتفه أنه برتبة نقيب، جالسًا على كرسيه، ومن أمامه ذلك المكتب متوسط الحجم، وأمام ذلك المكتب جلست أنا، ترتسم على وجهه علامات التعجب، أعتقد أنه في قرارة نفسه يظن أن بي مس من الجنون، أو أن ما حدث معي منذ قرابة الساعة جعل عقلي يعمل بطريقة تختلف عن باقي العقول الحيّة، تمامًا كالساعة التي تدور عقاربها في عكس الاتجاه المقرر لها.

***

رن هاتفي المحمول، صدرت عنه تلك النغمة التي خصصتها من أجلها، من أجلها هي فقط، طرت فرحًا إليه كأني أصبحت أخف وزنًا من الهواء، تلقفته بين أصابعي بلهفة، وضعته على أذني، استمعت إلى صوتها الذي وقتها بالنسبة لي يشبه صوت عصافير الجنة وهي تغرد معلنة قدوم الحور العين، قالت لي «كتابك يا أستاذ مصطفى خلاص إتوزع على المكتبات، الحمد لله فيه إقبال كبير عليه، إحنا انطلب مننا دفعة كمان، واضح إن الدعاية اللي إحنا عملناها كانت ناجحة ومجدية، ربنا يوفقنا»

بضع كلمات مختصرة قالتها لي أستاذة رشا مسئولة التوزيع بالدار التي صدر عنها كتابي الساخر الأخير «فيش وتشبيه».

بعد صدور الكتاب بعدة أسابيع، وعلى مدار أيام، بدأت أتصفح المواقع الإلكترونية المختلفة، لا يهم إن كانت مواقع تخص جرائد قومية أو معارضة، حزبية أو مستقلة، الكل بعد الثورة أصبح متشابه، لم يكن بحثي عن آخر الأحداث على الساحة السياسية، أو حتى الأحداث العالمية التي تشهدها الدول العربية، كنت أبحث عن أي موضوع يشير إلى الكتاب، وجدته أخيرًا، ثم وجدت موضوعًا آخر، ثم قراءة للكتاب، ثم الكثير من الأخبار من الأخبار، طرت فرحًا، الكتاب يعجب به النقاد قبل القراء.

***

أوقف سيارته بعيدًا عني، لم أنتبه له في هذا الوقت المتأخر من الليل، لم أنتبه حتى لمراقبته لي منذ خروجي من منزلي، لذا عندما صعدت إلى منزل صديقي لم ينتابني أي شعور بالقلق، ما إن دلفت مدخل العمارة حتى ترجل مسرعـًا من سيارته، في يده سلك رفيع مقوس بطريقة عجيبة، لا تعلم حقـًا هل هو لين أم صلب، أدخل السلك في باب سيارتي بجوار زجاج النافذة، بحركة ماهرة سريعة فتح الباب، سرق ما كان في السيارة وابتعد بسيارته هاربـًا.

حذرني أستاذ خالد صاحب دار النشر من قيام البعض باستغلال نجاح كتاب ما بطريقة سيئة، حيث يتم للأسف سرقة الكتاب، وطبعه تحت «بير السلم» على حد تعبيره، النتيجة الحتمية غرق الأسواق بنسخة مقلدة ليضيع حق الكاتب والناشر، كانت الفكرة غريبة عليّ، فدومًا ما نسمع عن حرامي فقير، أو حرامي مضطر، أو حرامي مريض، أو حتى حرامي غني، لكن لم نسمع من قبل عن حرامي مثقف!!!

استلمت أخيرًا النسخ المجانية الخاصة بي، أعلم على من سأوزعها، أعلم من يستحق أن يكون له إهداء خاص مني، لأني أعلم من هو فعلاً مقرّب إلي، من هو فعلاً يستحق لقب صديق، ومن يدّعي ذلك، وضعت النسخ المجانية جميعـًا في السيارة بدأت أتنقل فرحـًا على أصدقائي، كنت أشعر وقتها أن حافة الفضاء التي قفز منها «فيليكس» لا تغطي سقف سعادتي.

***

سألني الظابط عن من أعتقد أنه قد يكون له يد في سرقة محتويات سيارتي؟؟، قلت له لا أعلم، ليس لي أعداء، لي خلافات مع بعض الأشخاص، لكن الخلاف لا يصل لحد السرقة، حقيقة لا أعلم، كل ما أعلمه أني عندما نزلت من منزل أحد أصدقائي وجدت باب السيارة مفتوحا، ومسروقا منها بعض الأشياء، حمدت الله أنهم لم يسرقوا السيارة نفسها.

بعد أن طال تعجبه وصمته، وجه الظابط الموجود بقسم الشرطة سؤالاً لي

«لماذا أراك مبتسمـًا؟؟ أنت أول شخص يسرق منه شيء ويأتي ليبلغ عنه وهو مبستم»

كنت متفهمـًا لتعابير وجه النقيب، قلت له ببساطة

«من سرق النسخ المجانية من السيارة يعرف قيمتها، يعرف قيمتها جيدًا، فهو لم يلتفت إلى التسجيل باهظ الثمن، أو حتى إلى هاتفي المحمول الذي نسيته في السيارة سهوًا، كذلك لم يفكر في سرقة السيارة نفسها، فقط إهتم بكتابي، سرق عشرون نسخة من كتابي، وهذا في حد ذاته شيء أفخر به، لا أغضب منه، اللص يعرف قيمة ما سرقه»

أنهيت كلامي، ظللت مبتسمـًا منشكحًا، وظل النقيب متعجبًا، وظل اللص هاربـًا.

ركاب عربة المترو

لا أدري هل هو القدر أم الصدفة أم التوقيت المتأخر الذي جعل عربة المترو غير مزدحمة في تلك الليلة الباردة من ليالي شهر يناير، أينعم لم تكن هناك مقاعد شاغرة، لكن الواقفين لم يكن يتجاوز عددهم الثلاثة، وفي عرف قوانين وقواعد المترو فهذا خلو العربة، احتراق بعض مصابيح الإنارة أضفى على الوجوه بعض الغموض، ما جعل العربة أكثر رهبة ذلك الصمت الذي كان بمثابة اللغة الرسمية الوحيدة التي يجيدها الجميع... على غير العادة.

فور انغلاق أبواب العربة وقفت هي، سيدة يتضح من نغمات صوتها أنها قد اقتربت من خريفها الخامس، لم أكن أستطيع تحديد عمرها الحقيقي من ملامحها، ليس لأنها كانت تعطيني ظهرها عندما وقفت، بل لأنها عندما استدارت لتواجه ركاب عربة المترو بما فيهم أنا وجدت وجهها مغطى، هي سيدة منتقبة، حركتها البطيئة تنم عن إرهاق شديد، ملابسها المهلهلة تدل على حالة اقتصادية متردية... للغاية.

حول عنقها كانت تعلق حقيبة غريبة الشكل، مصنوعة يدويًا من بواقي أقمشة مختلفة الشكل واللون والخامة والحجم، في أول الأمر اعتقدت أن السيدة قد علقت الحقيبة على هذا النحو كحل بسيط للإرهاق البادي عليها الناتج عن عملها طوال اليوم، فالحاجة أم الإختراع، كما أنه كان واضحًا امتلاء الحقيبة بشيء ما، وربما كانت ثقيلة، بعد ثانية واحدة وكإجابة قاطعة لكثرة الأفكار المتلاحقة علمت سبب تعليقها هكذا، السيدة كانت تدخل يديها الاثنتين في الحقيبة لتخرج كل يد حاملة ورقة مطبوع عليها بعض أدعية الصباح والمساء، تبدأ في توزيعها على جميع ركاب العربة... بلا استثناء.

رغم ثقل حركتها الواضح من صوت زحف قدميها على أرضية العربة، إلا أن يديها كانتا تتحركان بسرعة، تناقض عجيب وكأن يديها وقدميها ينتميان إلى جسدين مختلفين، أحدهما نشيط متماسك، والآخر سيسقط مغشيًا عليه بعد دقائق، أما سرعة يديها فهي مرغمة على ذلك، لا لشيء، فقط لكي تتمكن من جمع ما وزعت قبل وقوف المترو في المحطة القادمة، حينها سيختلط

الحابل بالنابل، وتضيع الأوراق ومعها مصدر رزقها الوحيد، أما بطء قدميها فهي تبذل أقصى طاقتها، لكن العمر له أحكامه، والإجهاد له حدوده، وصلت إليّ، وضعت الورقة على ساقي وانصرفت في اتجاه الراكب الجالس بجواري... والذي كان منشغلاً بالقراءة.

أمسكت الورقة بيدي، نظرت لها -أي الورقة-خطفًا ثم تحركت بنظري تجاه تلك السيدة، مازالت تكمل عملية التوزيع، من يرفض أخذ الورقة منها تتركه فورًا دون جدال وتنتقل إلى الراكب المجاور له، خليط عجيب تجمّع في مكان واحد، اختلاف مستوى المعيشة بين الركاب كان أمرًا واضحًا يمكن تمييزه بالعين المجردة، أما هيئة كل فرد منهم فكانت تعطي انطباعًا -قريبًا من الصواب- عن طريقة التفكير أو الأسلوب المتبع لإدارة شؤون الحياة، في النهاية ومع كل تلك الاختلافات سواء كانت فكرية أو اجتماعية أو دينية الجميع كان ينتظرهم مستقبل واحد، لأن الجميع كانوا في عربة واحدة، تنقلهم جميعًا إلى مكان واحد، المحطة القادمة، إذا قدر للمترو الوصول إليها.

في أثناء عملية التوزيع لم تكن السيدة تنبس ببنت شفة، لم تقل حتى ما هو ثمن تلك الورقة، لم تقل شيئًا على الإطلاق، كأنها اكتفت بما قالته عند وقوفها أول مرة لتلفت انتباه الجميع، أو لتكسب تعاطفهم، سؤال قفز إلى عقلي في صمت وسكون مراعيًا رهبة المكان، ما هو السر في أن تلك السيدة لا تتحدث إلى أحد؟؟ هل يرجع ذلك إلى إرهاقها طوال اليوم، أم في عدم الرغبة في الحديث بوجه عام، أم تقديرها لضيق الوقت والذي قد يكون عدوها اللدود، أم أنها تعلم أن نظرات عينيها المنكسرتين وهيئتها الرثة أبلغ من أي كلام يمكن أن يقال.

البعض أرجع لها الورقة ومعها بعض النقود كنوع من الصدقة، رغم محاولة إخفاء النقود إلا أنه أمكن تمييزها بسهولة بسبب حركة اليد في إرجاع الورقة، البعض الآخر اشتروا الورقة ودفعوا ثمنها كنوع من التعاطف، ذلك الثمن الذي لم تعلنه يومًا، تلك الفئة لم تكن تحاول إخفاء النقود، آخرون أرجعوا الورقة

فقط كنوع من عدم الاهتمام أو عدم التصديق، يبدو أن شعور اللامبالاة قد أصبح متحكمًا في تصرفاتهم، العجيب أنه في أثناء عمليتيّ التوزيع والجمع لم تكن السيدة تفرق بين أحد، الكل عندها سواسية، الكل عندها مصريون، الكل عندها... ركاب عربة مترو.

رد الجميل..!

استقيظ من نومه، ببطء لا يفتقر إلى الحماسة مد يده ليفتح تلك النافذة الموجودة بجوار رأسه، يُـمني نفسه برؤية ما كان يتمنى رؤيته منذ أكثر من سبعة أشهر، اقترب بوجهه من زجاج النافذة، نظر إلى الأسفل، تلك معالم يعرفها جيدًا، تعود رؤيتها من قريب، رؤيتها من أسفل، رؤيتها كبيرة الحجم، لكنها أول مرة يرى بها أهرامات الجيزة بهذا الحجم الصغير، أول مرة يرى بها الأهرامات من الطائرة.

***

وقف على سلم الطائرة مستندًا على والدته، نظر إلى الخلف قليلاً، لحظة لم تتخطى الثانيتين لكنها كانت تعني له أعوام طويلة، لم ترى عينه من هذا المكان سوى مبنى المطار، لكن قلبه كان يستطيع أن يرى ما هو أبعد من ذلك، رأى شقته التي تركها منذ عدة ساعات، رأى الشارع الذي يسكن فيه، رأي أصدقاءه الذين وقفوا أسفل منزله يودعونه، رأى جارته وهي تقف في شرفة منزلها تظر له في الخفاء، رأى زملاءه في العمل، رأى مصر... بكل دروبها، كل أهلها، تمنى العودة لها مرة أخرى.

***

أصوات الرصاص كانت مسموعة بوضوح، أصوات صرخات المصابين كانت أكثر ضجيجـًا، تمنى الاطمئنان على أصدقائه، على جارته حبيبة عمره، لكن الاتصالات كلها مقطوعة، الانترنت كذلك، جلس في غرفته كالمجنون، يريد الخروج، يريد النزول، يريد المشاركة، لكن دموع والدته هي التي منعته، استعطفته، استحلفته بكل ماهو عزيز وغالي، ترجّـته ألا يشارك في هذه المظاهرات، لم يعد يتبقى لها سواه، بعد أن توفي الزوج، أو بالأحرى أستشهد، ظابط كان على الحدود غدرت به رصاصة مجهولة المصدر، رحل وتركهما

يواجهان مصيرهما.
جلست بجواره تبكي، المكان مستشفى حكومي، السبب إصابه ابنها الوحيد بمرض عضال، العلاج غير متوافر في مصر، الحل متمثل في السفر للعلاج في الخارج، غير ذلك مصيره الموت البطيء، «الأعمار بيد الله»، هذا ما قاله الطبيب المعالج، قال العبارة بمنتهى البرود، وانصرف تاركًا الأم تزرف الدمع وحيدة، تنظر إلى ولدها شريدة، فكيف لها تدبير ٣٠٠ ألف جنيه، وحتى إن استطاعت تدبيره، كيف لها رده مرة أخرى.

***

كالمجنون بدأ يدور في غرفته، الأخبار تفيد بنزول قوات الجيش إلى الشوارع بعد انسحاب قوات الشرطة، وانتشار الفوضى، وهروب المساجين من الأقسام والسجون، الضحايا كانوا بالمئات، المصابين بالآلاف، الغضب تحول إلى بركان بداخله يريد الانفجار، لم يعد يستطيع الاحتمال، ذهب إلى والدته مرتديًا كامل ملابسه، عازمًا على ألا يعود من الميدان إلا بعد سقوط النظام، نظرت له باكية، طمأنها، الجيش لن يضرب أولاده، الجيش ليس كالشرطة، الجيش يحمي البلاد، تمامًا كما كان يفعل والده، قبّلها في رأسها وانصرف، كان ينظر لها مبتسمًا، في سره كان يقرأ الشهادة.

***

بدأت تسأل الأهل والجيران عمن يمكن اقراضها مبلغ كهذا، كانت تسأل وتلح وتخبر من تسأله أنها سترد المال فور رجوعها مع ولدها، تعده بكتابة وصلات أمانة على نفسها، تعلم أنها تعد وعودًا واهية، تعلم أنها كاذبة، تعلم أنها قد تسجن، لكنها تعلم أيضًا أن ستفعل المستحيل لكي يشفى ابنها، سندها في الحياة، قلبها الذي ينبض، عيناها التي ترى بهما، أذناها التي تسمع بهما،

عقلها المفكر، ابتسامتها النقية، فلذة كبدها ومثلها الأعلى.
انضم إلى الثوار في الميدان، شعر أن هذا هو مكانه الطبيعي الذي ينتمي له، كان المفترض التواجد فيه منذ البداية، قبل أن يأتي لموطنه الجديد مر على جارته، مر بقلبه وبعقله وليس بجسده فقط، نظرات تبادلاها كانت كفيلة بشرح كل وجهات النظر، أخبرها كم يعشقها، أخبرته خوفها عليه، أخبرها أنه سيموت فداها في يوم من الأيام، أخبرته أنه عشيقها وولدها، أخبرها أنه يراها في كل مكان، أخبرته أنه من يعطيها الإحساس بالأمن والأمان.

***

بعض الجيران عرضوا عليها فكرة الاتصال بهذا البرنامج، فالمعروف عن تلك المذيعة مساعدتها الحالات المستعصية والحرجة، عن طريق التبرعات تجمع لهم الكثير من المال، الوقت كان يداهما، تبقى على الموعد المقرر لسفرها أقل من ثلاثة أيام، ذهبت إلى البرنامج، قبلت قدم المذيعة، موقف مؤثر على الهواء مباشرة، موقف عفوي جدًا لكنه كان مفيد للغاية، انهالت التبرعات على البرنامج، كأنه مطر بعد انقطاع دام لأشهر عدة، حجم التبرعات تخطى حتى المبلغ الذي كانت تريد جمعه، الأعجب ما قام به أصحاب التبرعات، وهبوا لها ما يتبقى من هذه الأموال، اقترحوا عليها استثمارها في مشروع لولدها إن قدر له العودة على قدميه مرة أخرى، مال لإجراء العملية، ومال لتأمين المستقبل، لم تكن تحلم بربع هذا النجاح.

***

استمع وهو بين أصدقائه إلى الخطاب الثاني للرئيس السابق، خطاب وصفه كل من حوله بالمحبط والمخيب للآمال، زاد احتقانه، زادت مشاعر الغضب بداخله، أشرف البركان على الإنفجار، تذكر والده وكأنه قـتـُل منذ قليل، تمنى لو استطاع عمل شيء ما، صعد إلى المنصة، نظر في الأعين المحتقنة الغاضبة،

بصوت عال قال «ارحل»، بصوت أكثر علو ردد الجميع وراءه.
ثمان ساعات هي طوال فترة العملية الجراحية، كانت تقف خارج غرفة العمليات، الحجاب الذي ترتديه وملابسها المحتشمة كانا محط أنظار الجميع، فدولة متحررة كألمانيا لا يقابل أهلها ذلك الزي كثيراً، تمسك بالمصحف بين يديها، تدعو الله أن يكتب النجاح وأن يخرج ابنها سالمًا معافى، فتح الباب، خرج الطبيب، قال لها بضع كلمات بالألمانية، أو لعلها الإنجليزية، لا تدري، هي لا تجيد أي منهما، لم تفهم أي كلمة مما قيل، لكنها فهمت من وجه الطبيب، فهمت من ملامح السعادة الواضحة في عينيه، علمت أن كل شيء على ما يرام، استجاب الله لدعائها المتكرر.

***

أمامه كانت الأهرامات صغيرة الحجم، لكنها بقيت في نظرة عظيمة القيمة، مازالت شامخة تتحدى الزمان والتاريخ والعلم الحديث، في المطار استقبله أصدقائه، في الشارع استقبله جيرانه، من نافذة غرفته استقبلته حلم حياته، تحركت شفتيها، سمعهما بقلبه، فالكلام الخارج من القلب دومًا ما يسمع من قِبل القلب، قالت له «حمداً لله على سلامتك، وحشتني».

***

وهو في الميدان هجمت عليهم الجمال والأحصنة، تفرق الكثيرون، خاف الكثيرون، شاهد الحلم ينكسر، شاهد العزيمة تهزم، شاهد الإصرار يضعف، نطق الشهادة بصوت عال واتجه صوب الجمال، تشجع الكثيرون، حذوا حذوه، بدأت الكفة تميل، بدأ أصحاب الخيول يتراجعون، بدأ أصحاب الجمال يسقطون، بعد انتهاء الموقعة، بدأ الجميع في تحديد عدد المصابين والشهداء.

جلست أمام التلفاز يتراقص قلبها، ليس فرحًا، بل خوفًا وقلقًا، فلا تدري ماذا حل بولدها، هل تذهب إلى الميدان لتطمئن عليه، هل تنتظر عودته، صوت جرس الباب، هرولت إليه تمني نفسها برؤية ولدها، فتحت متشوقة، وجدته أمامها، محمولاً على الأعناق.

كان أول من سقط شهيدًا في موقعة الجمل، عندما كان يحاول الأطباء إسعافه كان وكأنه يرفض المساعدة، كان فرحًا، الآن يشعر أنه رد الجميل، الآن يشعر أنه وفّى الدَين، فبجانب حبه لوطنه كان يريد أن يَـرُد الدَين لهؤلاء الذين تبرعوا بأموالهم من أجل علاجه، أشخاص لا يعرفونه ولا يعرفهم، لكنهم ببساطة قرروا مساعدته، قرروا الوقوف بجانبه، وحان الوقت الوقوف هو بجانبهم، أوصى من كانوا يسعفونه أن يذهبوا به لمنزله، حيث توجد حبيبتاه، أمه وخطيبته.

تمت بحمد الله ،